شيء خاص بهِ . وما في حقيقة مادتهِ وعلل المادة شيء وجودي كما نتصورهُ او شيء نسبي حلقات زوبعيَّة في الهيولى ونحن ووجودنا شعور نسبيٌّ بشيء نسبي — ذلك كلهُ مما لا نعلمهُ وقد لا نعلمهُ ابد الدهر فلا يدخل في مخادع العلم بل يبقى في دور التأسفة اما الحقائق التي يكشفها لنا العلم فنرى بالعين ونثبت بالامتحان وعليها تبنى الاعمال والمعاملات

الواجبات

لحضرة الكاتب الجليل فرح انطون صاحب المجلة الاوروبية الاشتراكية باكملها طيبة

١

لا تخال الوقت مناسباً لتذكير الناس بما يجب عليهم في زمان لا نراهم فيهِ يهتمون الاَّ بما لهم . غير ان الواجب واجب غضب الناس او رضوا أحبوهُ او كرهوهُ . وانا بالرغم عما نرى في الناس من الرغبة عن كل ما يذكرهم بواجباتهم نبحث هنا في الواجبات بحثاً يجوز ان يكون فيهِ لذة وفائدة للادباء . فنقول

على الانسان من حيث وجودهُ الذاتي واجبات تدعى الواجبات الذاتية ومن حيث وجودهُ الاجتماعي واجبات تُدعى الواجبات الغيريَّة ومن حيث وجودهُ الحقي واجبات لخالقهِ تسمَّى الواجبات الروحيَّة . فالواجبات اذاً إجمالاً على ثلاثة اقسام الواجبات للنفس والواجبات للغير والواجبات لله

وكل ما يُطلب من الانسان وجوباً ينطوي تحت هذه الاقسام . ومعنى الواجبات التزام الانسان صنع ما تقترضهُ عليهِ العدالة والحقيقة بقطع النظر عما قد يصيبهُ من وراء ذلك من النفع او الضرر او اللذة او الألم . والواجبات صورة الضمير والضمير نائب الله في الانسان وضعهُ الله فيهِ لمثل ما توضع المنائر على شطوط البحار . فقد تعالى امواج شهواتك ومصالحك وتهب زوابع العلم على سفينتك فتكاد تلقيها على الصخور وتحطمها لو لا تلك المنارة التي تراها دائماً امامك يشق نورها الساطع تلك الظلمات ويهديك الى ميناء السلام . فبينما تصف رعود شهواتك وهبوب اعصار مصالحك ترى ذلك النور وتسمع صوتاً باطنياً يقول اتركْ هواك وتمسك بواجباتك ولو كان فيها موتك وهلاكك .

هذا هو معنى الواجبات . ولنا في كلٍّ من اقسامها الثلاثة ابحاث نلخصها عن اداء

الكلام واساطين الفلسفة ونقدّم الكلام الآن في واجبات الانسان لنفسهِ ليس لانها اهم الواجبات بل لانها اقرب واجبات الانسان للانسان

٣

كثيرًا ما سمعنا على ألسنة العامة والخاصة هٰذا القول : " ماذا يعنيهم امري فانا حرٌّ بنفسي افعل بها ما اشاء " . فلنبحث اجائز هٰذا القول وهل الانسان حر بنفسهِ لايطالَب اذا فعل بها شرًّا

ولنسأل قبلاً أفي العالم رجل يستطيع ان يضر نفسهُ بدون ان يصل الضرر إلى الهيئة ألتي هو عائش فيها . اذا كان لك في حديقتك اشجار واردتَ قطعها او احراقها فلا اظنك تلقى من يعارضك وان رمت تزييق كتبك فلا تلقى معارضًا ايضًا وكذلك اذا رمتَ احراق مكتبتك وثوبك . وما ذاك الاَّ لان الشريعة والقانون انما وُضعا لحماية الجمهور من اعتداء الافراد . وبما ان الهيئة الاجتماعيَّة لم تعتب بضرر من قطعك اشجارك واحراقك كتبك وثيابك فلك ان تقول للقاضي الذي يتعدَّى لمعارضتك : " ماذا يعنيك فانا حرٌّ بمالي افعل بهِ ما اشاء " ولكن ان قيل منك هٰذا القول قضاة الشريعة فمحال ان يقبلهُ الضمير وقضاة الآداب

اي رجل لا يُحسب مخطئًا نحو اولادهِ وعائلتهِ اذا اضاع اموالهُ وبذَّرها تبذيرًا بلا فائدة . اذا اهملت ادارة ثروتك او فقدتها فانك لا تضر نفسك فقط بل تضر ايضًا من عوَّدتهم مساعدتك سنويًّا وهم الفقراء الذين يتضورون جوعًا الى جانبك . فاذًا لم تضر نفسك فقط بل اضررت الفقراء معك . هٰذا ما عدا السمعة الرديئة ألتي اكتسبتها والقدوة السيئة ألتي تؤثر في مواطنيك تأثيرًا مميتًا يعود اخيرًا شرًّا

هٰذا في ما يخص خارج الانسان وما يرى الانسان نفسهُ في حلٍّ من المؤاخذة بهِ لكن في ما يخص داخل الانسان مثل تشويهِ الجسم والنفس واهمال قواهما فهذا في نظر الحكماء بمثابة هدم هيكل الله واطفاء نورهِ وتخريب نظام العالم العجيب . او لا تحسبون ان العناية الالهيَّة مقصدًا بارسالها إلى الارض رجالاً كنيوتن وديكارت وخريستوفوروس كولومبوس ؟ بلى وما ارسلتهم وزوَّدتهم بالقوى والمواهب اللازمة الاَّ وضعت امامهم واجبات فرضت عليهم القيام بها . فلو كانَ هؤلاء المشاهير اهملوا قواهم ومواهبهم وانتصبوا يوم الدينونة لدى العدالة قائلين انهم ابرار لانهم لم يضعوا شرًّا وانهم احرار بانفسهم فعلوا بها ما شاءوا أفتحسبون ان العدالة كانت تسمع لهم وتقبل دفاعهم؟ نتج اذًا ان هٰذا القول "انا حرٌّ بنفسي افعل بها ما اشاء" قول مخالف للعدالة والحقيقة لاننا لسنا لانفسنا بل للوطن والشرف والعائلة

والواجبات للنفس كلية الواجبات يمكن قسمتها الى قسمين : ايجابية وسلبية . والمراد بالايجابية هنا وجوب صنع الخير وبالسلبية اجتناب المضرة . اما في الواجبات للقريب فالانسان اميل إلى اتمام الواجبات السلبية اي الاقتصار على اجتناب الاضرار وبالعكس في الواجبات للنفس وذلك لان محبة الذات تدفعنا إلى ارادة الخير دائماً لانفسنا بقطع النظر عن الغير

وتقوم الواجبات الايجابية بامرين : حفظ الانسان نفسهُ وترقية قواهُ البدنية العقلية اما الواجبات السلبية فتقوم بان لا يقتل الانسان نفسهُ ولا يشوّهها ولا يحط قواها

قبح الانسان قتل نفسهِ اي فك ذلك الرباط المقدس الذي ربط الله به النفس بالجسد . ومن الفلاسفة من يجيز الانتحار ولا يزال لهذه الفلسفة اتباع كثيرون . قال اپيكتيتا : " ما أقرب ما بين العبودية والحياة لمن لا يخاف الموت فهو باب مفتوح للنجاة من مصائب الحياة " . ولكن العقلاء لا يرون للانسان حق نزع ما اودعهُ الله فيهِ من النعمة المقدسة اي النفس الخالدة التي هي من نفس الله وروحهِ . فليس للانسان ان يترك هذه الحياة الى الثانية الا متى دعاهُ مولاهُ . ومهما كان حملهُ في هذه الدنيا ثقيلاً فالواجب عليهِ ان يحملهُ بصبر وشكر والاَّ عُدَّ بذلاً جبانًا . وكثيرون ممن ينتحرون يدَّعون الفرار من الخطية ومصائبهم كلاَّ انهم يفرُّون من واجباتهم . والشرف يأمر ان يقوم الانسان بالواجبات مطلقاً مهما يسهل عليهِ منها فقط . واذا كانت احمالنا ثقيلة فذلك باعث على زيادة الاستمساك بها ومن العار والجبانة محاولة الفرار منها

وما يمنع الانسان ايضاً من قتل نفسهِ يمنعهُ ايضاً من تشويه جسمهِ واضعاف قواهُ فان من واجباتنا البقاء في المنزلة الرفيعة التي وُجدنا فيها . خُلقنا من طينة الانسانية فلا ننزل الى طبيعة البهائم والحيوانات . ويضعف الانسان قواهُ بالكسل والافراط في الملذات والافراط في الوقاية . اما الكسل فيضعف القوى بما ان الكسلاني لا يرون قواهُ بل يدعها تموت غير آسف عليها او انهُ يرى في نفسهِ وجسدهِ آلاماً ويترك مداواتها . واما الافراط في الملذات فضرره من حيث انغماس النفس والحواس في شهوات جسدية توهنها وتذهب بقوتها وانضارتها . بقي الافراط في الوقاية والمراد بهِ هنا انتزاع الانسان قوة موجودة فيهِ مخافة ان يستعملها يوماً ما ضد نفسهِ كالبهائم او الكسلاني الذي لا يستنكف من ان يعيش طول حياتهِ تابعاً او ذنباً لغيرهِ راضياً بالعيش الرخي لا ينقل قدماً الى الارتقاء والاستقلال . الشجعي حذرًا من مصائب الحياة هو الذي يحفظ الحق بين الفئة الاولى والثالثة اي بين الكسل والافراط في الوقاية . ولا تحسب معيشة هذه

تداعة بل خمولٌ وضعفٌ وجبانة ولقصير في الواجبات وتحسب من الفئة الثانية بعض الشبان المتعلقين على اذيال الادب الذين من حين سمعوا ان ميرابو خطيب الثورة الافرنسية كان مولعاً بالبذخ وحب الازهار وغمبتا الخطيب الشهير نهماً محباً للخمر وما وراءها حسبوا ان الكاتب او الخطيب لا يشتهر اشتهار ميرابو وغمبتا الاَّ اذا عمل عملهما وظنوا الرذائل شرطاً في الفضائل والعياذ بالله او ان الرذائل تستر بها الفضائل ومعاذ الله. ومهما يكن من امر الاسباب التي تبعث الانسان على إضعاف قواهُ او تقليلها نقول ان هذا الاضعاف والتقليل يناقضان الحقيقة والعدالة على خط مستقيم . ومن يجسر عليهما يجب ان يعامَل بنفس الصرامة التي يعامَل بها الشاب الذي يشوّه جسمهُ تخلصاً من الخدمة العسكرية

اما القسم الثاني من الواجبات للنفس وهو الواجبات الايجابية فتقوم كما ذكرنا بحفظ الانسان نفسهُ وترقية قواهُ البدنية والنفسانية . واساس الواجبات السلبيَّة يمكننا اعتبارهُ اساساً للواجبات الايجابية . ولا نعتقد بوجود من يعارض التزام الانسان بحفظ نفسهِ ووقايتها وترقية قواها فلا حاجة اذاً الى اثبات ذلك . ولكن هنا مسألة من اكبر المسائل التي لا تزال تشغل الفلاسفة واللاهوتيين الى الآن . وهم فيها قسمان قسم يمنعها وقسم يجيزها . وهذه المسألة هي حرية الفكر . فان بعضاً منهم يذهب الى ان من واجبات الانسان توسيع مداركهِ واطلاق حرية البحث لفكرهِ وبعض يذهب الى عكس ذلك فيحرّم حرية الفكر على الانسان

٣

ولولا ما نويناهُ من تلخيص اكثر ما نوردهُ هنا عن جهابذة هذا العلم وارباب ما اقدمنا على هذا البحث العسر فان الطريق كؤودة والبحر هائج مضطرب يغرق فيهِ زورق صغير قلَّ نظير زورقنا فيقتضي لاجتيازهِ سفينة حصينة كسفينة الفيلسوف جول سيمون الذي نأخذ عنهُ الآن اكثر ما نروي في هذهِ المقالة وعقل كعقلهِ السليم النزيه الذي ابقى لهُ في وطنهِ ذكرًا خالداً كما يبقى الطيب في القارورة رائحة تدوم إلى ما بعد ذهاب الطيب منها

وقبل الخوض في اساس هذا الموضوع نسأل ما المراد بحرية الفكر وما هو تعريفها ؟ وهل المراد بها حرية الانسان في ان يظهر افكارهُ ؟

كلاَّ فان بين حرية الفكر وحرية الانسان في اظهار ذلك الفكر فرقاً يظهر لدى ادنى تأمُّل . على ان الحرية الثانية نتيجة للاولى فان ثبتت لنا هذه اشتقَّت منها الثانية لا محالة . والاَّ كان الانسان عبداً رقيقاً اذ كيف يجوز اعطاؤهُ حرية الفكر وحرمانهُ حرية العمل

ولا نظن احداً ينكر علينا ان في مقدرة الانسان ان يفكر كما يريد فان الله لم

يسط لاحد ان يذلل هذه الحرية الداخلية . وليس في كل قوات العالم من قوة تستطيع ان ترغم الانسان على الاعتقاد بخلاف ما يعتقد . نعم قد يؤثر عليه العذاب حتى تدفعه شدته الى التصريح بانه ترك معتقده ولكن لا تدفعه حينئذٍ قط هذا التصريح لا انك وانما يقصد به التخلص من آلام العذاب . فلتغيير معتقده يقتضي قوة لا توجد في آلات العذاب بل لا توجد مطلقاً الا في باطن ذلك الانسان وتزيد بهذه القوة ارادة الانسان ومصادقته على تغيير معتقده . ومهما ثقلت القيود وارتفعت المحارق واتسعت السجون فلا يؤثر ذلك شيئاً . وهل في العالم اكثر من وأد الانسان اي دفنه حياً فلا يذلل ذلك فكره

قال احد القياصرة الرومانيين لعضو من اعضاء مجلس الشيوخ وكان معاندًا له : اترك معاندتي والا اكرهتك على ذلك . اجاب لا اترك . قال اذًا اقطع رأسك . قال له بسمًا ومن قال لك انهُ لا يُقطع . قال سأقتلك . قال ذلك كبير عليك وانما تقتل جسدي اما فكري فيدك لا تصل اليه

فينتج مما قدمناه ان الفكر حرٌّ لا يخضع لارادة غير ارادة صاحبه وليس لاحد من يد في ادارته غير يده . فبالحكمة لخالق العظيم وسر اعماله فانهُ ما صح ان تنزل بالانسان المحن والاضطهادات الهائلة الا بعد ان منحهُ تلك الحرية الداخلية المستقلة المطلقة كأنها هبة الهية واكبر تعزية في وسط تلك الاحزان . كأنَّ العناية ارادت بذلك ان يبقى بمكان رحب لاقامة ذلك المضطهد المسكين بين تبذهُ الارض وتخلى عنهُ السماء

واذا سألنا هل الانسان حرية الفكر لا نريد بذلك ما اذا كان الانسان حرًّا باظهار فكره ولا ما اذا كان في العالم قوة تستطيع تذليل الفكر والتسلط عليه . كلا وانما نريد بذلك ما اذا كان في الطبيعة الموس يقضي على الانسان ان يتمحص عقليةً لكي يرى ما يراهُ وان لا يتجاهل ما لا يجهلهُ وان يحرم على نفسهِ البحث في اسرار يرتاب بها وان يعتنق مذهبًا لا يعتقد صحتهُ . هذا هو المراد من المسألة .

اما وقد بلغت المسألة هذا المبلغ من البسط والايضاح فقد انحلت من نفسها !!!

قد ثبت فلسفيًا ان الحرية طبيعية في الانسان وعنصر من عناصر نفسه وهي التي تضعهُ فوق مرتبة الحيوان . قال سيسيرون الحكيم ، " تشارك الحيوانات الانسان في كل مواهبهِ فالطاووس اكيس منهُ منظرًا والاسد اشد قوة والجواد اسرع عدوًا اما ما يمتاز به الانسان عن الحيوان فالعقل والحرية " وبما ان الحرية طبيعية في الانسان فهي حق لهُ . ولذا اتفق ان رأينا الهيئة الاجتماعية تمس احيانًا هذا الحق فانما يكون ذلك حفظًا للحرية العمومية من

الحرية الشخصية اي صيانة للعموم من الافراد . وفيما سوى ذلك فلا يجوز مس الحرية الشخصية

وبما ان الحرية فطرية اي موجودة في طبيعة الانسان وفطرته فيقتضي ان يكون الخالق الحكيم الذي وضعها وضع لها ايضاً نظاماً . لذلك نرى لكل من حرية العمل وحرية الفكر نظاماً خصوصياً او لجاماً موجوداً في داخل الانسان : لحرية الفكر لجام العقل ولحرية العمل لجام الآداب

قال ديكارت في كتابه (Discours de la méthode) : « اول المبادىء الفلسفية ان لا يعتقد الانسان بشيء ويسلم به قبل ان يتضح بصحته » فرضع بهذا القول اساس الحرية الفلسفية والمدنية والسياسية

وتحت الحرية الفلسفية تنطوي حرية الضمير او حرية الاعتقاد وهي فرع من فروع حرية الفكر بل هي حرية الافتكار بالمسائل الدينية . فكيف تعطى حرية الاعتقاد وتمنع حرية الفكر ؟ يقولون قد يكون في حرية الفكر خطر للهيئة الاجتماعية ولافرادها معاً ولكن ان كان في حرية الفكر خطر فيكون معظمهُ آتياً من حرية الاعتقاد لان المسائل الدينية اكثر مكامن الخلاف والنزاع . فكيف تعطى حرية الاعتقاد وتمنع حرية الفكر ؟ وما هي حرية الاعتقاد الا هي فقط ان يكون لي الحق بان افكر ؟ — كلاَّ وانما هي ان يكون لي الحق بان افكر وانشر ما افكر به . هذه هي الحرية الدينية والفلسفية التي نفى من اجلها شهداء كثيرون

افتح التاريخ وتصفح حادثة قتل لويس السادس عشر فيرعبك فيها صوت الطبول التي ضُربت وخنقت صوتهُ . كذلك في موت الكونت دي لالي فان الكرة الخشبية التي وضعوها في فمهِ منعاً لهُ من التكلام قبل مماتهِ تملأ القلب غيظاً وحزناً . يا لحماقة البشر وجنونهم . ترك الله لهم حرية قتل اخوانهم كما يدَّعون فما الذي يخافونهُ من كلامهم ؟

ولا شيء في التاريخ يسوّد القلب ويدعو الى الشفقة على الانسانية مثل ذكر معابد أغلقوها ومنابر كسَّروها وكتابات احرقوها واصوات قالت الحق فخنقوها . وللانسان قوة ان يحتمل كل مصائب هذه الحياة الاَّ مصيبة ضغط الفكر ويتخلى عن كل حقوقهِ في الحرية والعدالة على شرط ان يبقى لهُ حق الاستغاثة بالله والحقيقة

فرغنا الآن من الكلام على الواجبات للنفس وربما عدنا إلى تتمة الكلام في بقية الواجبات في فرصة اخرى ان شاء الله